خصائص الشعر الجاهلى

مدخل :

لم تكد الحرب العالمية الأولى تدنو غايتها حتى أخذ الناس يتساءلون عما يمكن أن يكون لها من أثر فى الحياة الأدبية ، وفيما ينتج الأدباء من شعر ونثر ، ثم لم تكد الحرب العالمية الثانية ترسل نذرها إلى الأرض حتى أعاد الناس إلقاء هذه الأسئلة على أنفسهم ، ولكل سؤال وجواب كما يقول (جميل) لصاحبته بثينة[1] :

وأول ما اقتاده المودة بيننا ... بواد يفيض يا بثين سبات
فقلن لها قولاً فجاءت بمثله ... لكل سؤال يا بثين جواب[2]

ومن أجل هذا أخذ الناس ينبئون بما ستصير إليه الأحوال الأدبية من قوة أو ضعف ، ومن رقى أو انحطاط ، ومن تطور فى بعض فنونها ينتهى به إلى النمو ، أو ينتهى به إلى الانقراض ، أو ينتهى به إلى تحول خطير أو يسير .

وقد كذبت الحوادث كثيراً من هذه النبؤات وصدقت منها كثيراً ، وانتهى بعض الأدباء الفرنسيين الممتازين إلى أن يجيب عن سؤال من هذه الأسئلة ألقى عليه فى أثناء الحرب العالمية الثانية بأنه لا يعلم أن للحرب أثراً فى الأدب أو أن للأدب أثراً فى الحرب ، وليس هذا الجواب إلا نوعًا من أنواع الشك وفنًا من فنون التردد الذى يقضى به الاحتياط على من يريد أن تكون أحكامه صائبة وغير مسرفة فى تجاوز الحق .

فليس من سبيل إلى أن ننكر أن للأحداث الجسام ، والخطوب العظام أثرها البعيد فى حياة الناس ، ومتى تأثرت آدابهم ، لأن هذه الآداب آخر الأمر ليست إلا تعبيراً عن

(١) ألوان للدكتور طه حسين ص٥ نشر دار المعارف بالقاهرة .
(٢) الديوان .

هذه الحياة وتصويراً لها ، فإذا تغير الأصل تغيرت الصورة ، وإذا تغير المعنى تغيرت العبارة التى تؤديه[1] .

وفى تاريخ أدبنا العربى ظاهرة لعله يشارك فيها غيره من الآداب قديمها وحديثها ، ولكنها واضحة جلية فيه أكثر من غيره ، فقد عمر الأدب اليونانى القديم قروناً طوالاً ثم ألقى بينه وبين الناس ستاراً ، فلما استأنفت الأمة اليونانية الحديثة حياتها المعاصرة أنشأت لنفسها أدباً مقطوع الصلة بالأدب القديم فهو ليس جزءاً منه ، ولا استمراراً له .

إذاً الأدب اليونانى القديم حى بنفسه ، فهو لا يستمد حياته من أمة حية ، أما أدبنا العربى فقد عمر بضعة عشر قرناً إلى الآن ، واختلفت عليه خطوب كثيرة متباينة ، بيد أنه مازال حياً قوياً يستمد حياته وقوته من شخصيته العظيمة ، ومن هذه الأجيال التى لاتزال حية قوية ترعاه وتكلؤه ، وتنفخ فيه من روحها كما تستمد منه قوة وأبداً ، فهى تمنحه وتأخذ مته ، وتعيش عليه وله وبه شأنها معه كشأنها مع ما يقاوم حياتها المادية من الأرض والجبال والأنهار ، فالحياة الزمنية للأدب العربى لم تنقطع ، ويبدو أنها لن تنقطع .

كما أن الصلة بينه وبين الأجيال المعاصرة فى بلاد الشرق العربى من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلنطى ، وفى بيئات عربية متفرقة هنا وهناك فى أقطار العالم القديم والعالم الجديد .

هذه الصلة مازالت قائمة متينة خصبة كالصلة التى كانت بين الأدب العربى والأمة العربية أيام المتنبى وأبى العلاء ، فالظاهرة التى يمتاز بها ، والتى تمكنا من درسه وتتبع أطواره هى أنه قديم جداً وحديث جداً ، فقد اتصل قديمه بحديثه اتصالاً مستقيماً لا انقطاع فيه ولا التواء ، ففيه خصائص الآداب القديمة وخصائص الآداب الحديثة ، وفيه ما يمكننا من استخلاص الحديث من القديم ، فهو كائن حى أشبه ما يكون بالشجرة العظيمة التى ثبتت جذورها وامتدت فى أعماق الأرض ، وارتفعت غصونها وأفنانها منتشرة فى أجواء السماء ، والتى مضت عليها القرون تلو القرون ومازال ماء الحياة فيها غزيراً يجرى فى أصلها الثابت فى الأرض ، وفى فروعها الشاهقة فى السماء[2] .

(١) الديوان ، ٦ ، ٧ .

(٢) ألوان د/ طه حسين ص١١ وما بعدها بتصرف .

وأخص ما نلاحظه فى حياة أدبنا العربى منذ أقدم عصوره أنه يأتلف من عنصرين خطيرين لا يحتاج استكشافهما إلى جهد أو عناء .

أحدهما : داخلى يأتيه من نفسه ومن طبيعة الأمة التى أنتجته .

وثانيهما : خارجى يأتيه من الشعوب التى اتصلت بالعرب أو اتصل العرب بها ، ويأتيه أيضًا من الظروف الكثيرة المختلفة التى أحاطت بحياة المسلمين وأثرت فيها على مر العصور ، وهذان العنصران اتفق على تسميتهما بهذا الاسم : التقليد ، والتجديد .

فأدبنا العربى تقليدى له طابعه البدوى القديم لم يخلص منه ولم يستطع الخلاص منه ، ولا يمكن التحول عن هذا الاعتقاد ، لأن التحول معناه قفل لهذا الأدب ، وقطع للصلة بينه وبين العصر الحديث وانحراف به عن طريق الحياة المتصلة التى تسلكها الآداب الحية إلى طريق الحياة المنقطعة التى سلكها الأدب اليونانى واللاتينى[1] .

وغير خاف على ذى لب أن السبب فى ذلك راجع إلى القرآن الكريم ، وهو الذى قضى بثبات هذه الأصول ، فلغته الفصحى مقوم أساسى من مقوماته ، وقد انحرف كثير من الناس فى العصور القديمة ، وفى هذا العصر الحديث عن هذه اللغة فأنتجوا آثارًا فيها لذة ومتعة ، ولكن لم نعدها أدبًا ولم نرفعها إلى هذه المرتبة التى نضع فيها هذه الرائعة ، والتى نستمد منها غذاء القلوب والعقول والأرواح ، فأدبنا العربى أدب منطوق مسموع قبل أن يكون أدبًا مكتوبًا مقروءًا ، وهو من أجل هذا حريص على أن يلذ اللسان حين ينطق به ، ويلذ الأذن حين تسمع له ، ثم يلذ بعد ذلك النفوس والأفئدة حين تصغى إليه ، وليس أدل على ذلك من أن العرب فى جميع عصورهم لم يعنوا بشىء قدر عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته ، ورقيق الأسلوب ورصانته ، ومن أصولنا التقليدية فى الأدب (عمود الشعر) هذا الذى لم يستطع القدماء تحديده ولكنهم حرصوا عليه أشد الحرص ، وهذا الذى لم يستطع أحد من شعرائنا أن ينحرف عنه فى حقيقة الأمر مهما يقل فى (مسلم ، ودعبل) وأبى تمام والمتنبى وغيرهم من أصحاب التكلف والتصنع والبديع ، فهؤلاء وأضرابهم قد هموا أن يحددوا ، وحددوا بالفعل فى كثير من الأشياء ، ولكنهم

---

(١) ألوان د/ طه حسين ص١١ وما بعدها بتصرف .

احتفظوا دائمًا بفصاحة اللغة وجزالتها وبرونق الأسلوب ورصانته ، كما احتفظوا بالأوزان القديمة ، فلما جددوا لم ينكروا إلا أوزانًا يمكن أن ترد إلى الأوزان القديمة على نحو من الأنحاء .

ثم إنهم لم يستطيعوا على كثرة ما عابوا القدماء ، وحاولوا الانحراف عن مذاهبهم أن يبرئوا نفوسهم وقلوبهم وفنهم من هذا الحنين الذى فرضته البادية على شعرائها البادين ، وقد كان أبو نواس من أشد الناس عيبًا للقدماء ومحاولة للانحراف عن مذهبهم فى ذكر الأطلال والرسوم ، ولكنه ذكر الأطلال والرسوم أولاً كما ذكرها غيره من الشعراء القدماء وحن حين حاول التجديد إلى معانى اللهو والعبث كما كان الأعرابى القديم يحن إلى ديار (هند وأسماء) فالحنين قائم عابث بنفس الشاعر وقلبه ، منبث فى فنه كما ينبث الماء فى الغصن وإن تغيرت المظاهر والألفاظ ، وقد أنكر الشاعر (أبو نواس) كما أنكر غيره وصف الطرق والإبل ، ولكن أبا نواس قد وصف الطرق والإبل كما وصفها غيره من المحافظين والمجددين[1] .

وقد حاول الموشحون فى الغرب أن يحطموا الإطار القديم الذى كان يحيط بالقصيدة فيزاوجوا بين أوزان وأوزان ، ويخالفوا بين قواف وقواف ولكن منهم لم يستطع أن يعمر طويلاً حيث فنى فى الزجل وأصبح لونًا من ألوان الأدب العلمى الذى نبتذله مخطئين أو معيبين[2] .

إذًا فهناك أصول تقليدية فى أدبنا العربى استطاعت أن تتغلب على الحوادث والخطوب وألوان التطور ، وأن تسيطر على شعر المعاصرين فى الأقطار العربية كلها ، ولا ينجحون نجاحًا حقيقيًا إلا إذا استبقوا هذه الأصول التقليدية ، ولم يبتعدوا عنها إلا بمقدار .

والنثر مع أنه استحدث بعد ظهور الإسلام ، وبعد تلاوة القرآن وحدوث الأحداث الجسام ، فقد اتخذ لنفسه أصولاً تقليدية تقارب أصول الشعر ، فحرص على اللغة

(١) ألوان د/ طه حسين ص١١ ، ص١٥ بتصرف .
(٢) ذاته .

المصرية وعلى الفصاحة والجزالة ، والرونق والرصانة ، واستبقى مسحة بدوية تشيع فى أثنائه فتسبغ عليه جمالاً ساذجًا لا يخلو من روعة وجلال ، ومع أن كثيراً من فحول النثر قد كانوا متأثرين بالثقافات الأجنبية أو منحدرين من أصول أجنبية فقد حرص النثر على أصوله التقليدية حرصًا شديداً ، واستمد أكثر هذه الأصول من الشعر الذى اتخذه لنفسه إمامًا أول الأمر ، ثم نافسه وغالبه بعد ذلك ، وقد تكلف الكتاب كما تكلف الشعراء ، واستعاروا من الشعراء بديعهم وتصنعهم ولكنهم خضعوا لمثل ما خضع له الشعراء من الاختيارين التجديد المقتصد والإسراف الذى ينتهى بهم إلى السخف والازدراء ، وأمر النثر فى العصر الحديث كأمر الشعر من هذه الناحية[1] .

فكما أنك لا تسمع قصيدة ولا تقرؤها إلا رجعت بها إلى أصولها التقليدية الأولى ، وإلى الإطار التقليدى الذى يحيط بها ويمكنها من الثبات والاستقرار ، ومن الجريان على الألسنة ، وحسن الموقع فى الأسماع والقلوب ، فأنت لا تقرأ كتابًا ولا فصلاً إلا رجعت بما تقرأ إلى الأصول التقليدية القديمة ، وذكرت هذا الكاتب أو ذاك من كتاب العصر القديم ، فالأصل فى الكتابة كالأصل فى الشعر ، تخير اللفظ الفصيح الرصين الجزل للمعنى الصحيح المصيب ، والملاءمة بين اللفظ واللفظ ، وبين المعنى والمعنى فى كل ما يكون هذا الانسجام الخاص الذى يستقيم له الشعر والنثر فى لغتنا العربية الفصحى ، مع الحرص كل الحرص على الإعراب والإيثار للألفاظ التى تقرها معاجم اللغة المعروفة .

إذًا فالعناصر التقليدية فى أدبنا قوية شديدة القوة ، مستقرة ممعنة فى الاستقرار مستمرة على الزمن ، وهى التى ضمنت بقاء الأدب العربى هذه القرون الطوال ، وهى التى ستضمن بقاءه ما شاء الله له أن يبقى أما عناصر التجديد فهى العناصر التى منعت الأدب العربى من الجمود ولاءمت بينه وبين العصور والبيئات وعصمته من الجدب والعقم ومكنته من أن يصور الأجيال المختلفة التى اتخذته لسانًا ويتيح لها أن تعبر فيه عن ذات نفسها ، فأدبنا العربى كغيره من الآداب الحية ، بل كغيره من كل الظواهر الاجتماعية مكون من هذين العنصرين اللذين كان « أوجست كونت » يسمى أحدهما ثباتًا واستقرارًا ، ويسمى ثانيهما نحولاً وانتقالاً .

(١) ألوان د/ طه حسين ص ١٦ بتصرف .

والذى يمتاز به أدبنا العربى من بين الآداب الحية الأخرى هو : أن التوازن لم ينقطع بين هذين العنصرين ، وإن كان أحد العنصرين قد تفوق على صاحبه من حين إلى آخر في القوة ، فكان الأدب فى بعض العصور مسرعًا إلى التطور ممعنًا فيه ، وكان فى بعضها الآخر مؤثرًا للثبات حريصًا عليه فقد تفوق عنصر التطور بعد ظهور الإسلام بنحو نصف قرن حين نشأ الجيل الجديد من العرب ، واتصل بالأمم الأجنبية متنقلاً إليها ومستقرًا فى أرضها فاتحًا وغازيًا أو مرابطًا أو عاملاً فى مصالح الدولة ، وانتقلت هى إليه فى عقر داره فى الحجاز ونجد سببًا وموالى تعمل له وتقوم على خدمته وتعلمه من شئون الحضارة والثقافة ما لم يكن يعلم فى هذا الوقت دفع العرب إلى حياة جديدة فى كل شىء ، ولم يكن بطيئًا فى الاستجابة لهذا التجديد ، فتطور الشعر فى ألفاظه وأوزانه وأساليبه ، وفى معانيه وموضوعاته ، ونشأت فيه فنون لم تكن من قبل ، واستحدث النثر خطبًا مطولة وقصصًا مفصلة ورسائل موجزة محملة ، ثم كثرت أحداث السياسة فتطورت النفس العربية بدوافع جاءتها من داخل ، واشتد الاتصال بين الأمم الإسلامية فتطورت النفس العربية ونفوس الأمم الأخرى المستعربة بدوافع جاءتها من خارج ، ثم قوى الاتصال فلم يقصر على المجاورة والمعاشرة والمعاملة والتعاون على شؤون الحياة المادية ، وإنما قرأ العرب ما كان عند غيرهم ، وقرأ المستعربون ما كان عند العرب ونشأ عن قراءة هؤلاء وأولئك هذا التطور الخطير ، الذى تمتاز به العصور العباسية فى القرون الثانى والثالث والرابع[1] .

خصائص الشعر الجاهلى :

قبل أن نشرع فى تبيان خصائص الشعر الجاهلى لابد أن نوضح المقصود من كلمة (خصائص) فهى كلمة يختلف مفهومها لدى بعض الباحثين فى الشعر الجاهلى فكلمة (خصائص) تعنى مجموع الصفات الأساسية أو الغالبة على هذا الأدب فى عصر من العصور[2] .

---

(١) ألوان د/ طه حسين ، ص١٨ بتصرف .

(٢) الشعر الجاهلى تصوره وخصائصه الفنية د/ بهى الدين زيان، ص١٣١ ط دار المعارف ، القاهرة.

فإذا عرفنا خصائص أى من الآداب فى أى عصر من العصور عرفنا ما يميز هذا الأدب عن ذاك وما يميز هذا العصر عن غيره من الأعصر وهذا التوضيح يمنع الاختلاط بين ما يعد من خصائص لهذا الأدب ، وما هو بعيد عن أن يكون من خصائصه ، أو ليس من الدقة أن نقول : إنه من خصائصه ، فقد تحدث بعض الدارسين عن خصائص الشعر الجاهلى ، فتحدث عن نشأة هذا الشعر وعن أنه غنائى كما تحدث عن موضوعاته[1] .

ونحن نرى أن الحديث عن نشأة الشعر الجاهلى ، وأنه شعر غنائى ، لا يعد من خصائص الشعر الجاهلى ، إذا أردنا أن نحدد المفهوم الدقيق لهذه الكلمة حيث إنها لا تصور لنا الصفات الأساسية للشعر الجاهلى ، فأمر بدهى أن الشعر العربى غنائى جميعه تقريبًا ، وأن موضوعاته لم تتغير كثيرًا طوال عصور أدبية طويلة ، والحديث عن نشأته لا يفيدنا كثيرًا فى تبيان خصائصه ، فهى لا تعد خصائص إلا إذا كان قبل العصر الجاهلى عصر آخر له ميزات أخرى ، وموضوعات مختلفة ، ثم جاء العصر الجاهلى فطالعنا بموضوعات أخرى ، وصور متباينة ، أو صور فيها تجديد تميزه عن العصر الذى سبقه ، أو صار شعرًا غنائيًا بعد أن كان غير غنائى فى العصر الأسبق ، ولكن والحال ليست كذلك فإننا نعد موضوعات الشعر الجاهلى من الصور العامة ، التى تحدد آفاق هذا الشعر ، وكذلك الحال فى غنائيته فهى ليست خاصية إلا إذا ارتبطت بتطور تاريخى .

ولهذا فمثل هذه الأشياء تفيدنا فى الحديث بوجه عام عن الشعر الجاهلى ، أما كونها خصائص فلا تعد من خصائصه حيث إن الخصائص أعمق من هذه الصورة العامة ، كما أن الحديث عن موضوعات الشعر الجاهلى وأنه شعر غنائى لا يعد حقيقة من خصائص ذلك الشعر إلا إذا كان ذلك فى مجال المقارنة بينه وبين أشعار أجنبية ، وفى ذلك الوقت يجوز لنا أن نتحدث عن نشأته وموضوعاته ، وغنائيته لتبيان ما يخالف فيه الشعر الجاهلى هذه الأشعار الأجنبية حيث إنها تصبح يومذاك صفات وميزات تخصه دون غيره من الآداب ، وفيما عدا ذلك تكون جزءًا من الصورة العامة التى توضح لنا مجال الشعر الجاهلى وليست بخصائص له ، فبون شاسع بين الصورة العامة للشعر الجاهلى ، والخصائص الفنية له .

(١) العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف ، ص١٨٣ وما بعدها ط دار المعارف ، القاهرة .

والخصائص كما أومأنا إلى ذلك آنفًا هى الصفات العامةأو الغالبة والتى يتصف بها ذلك الشعر - أعنى الشعر الجاهلى - وعلى هذا الأساس لابد من التسليم بالامتياز الفردى لكل شاعر ، وأن لكل شاعر من الصفات والخصائص ما يميزه عن غيره من الشعراء فمن بدهيات الأمور أن لكل شاعر اتجاهه ومذهبه وقاموسه الشعرى وفنه الذى يميزه من غيره من الشعراء . وتلك خصائص فردية ، فنستطيع أن نقول : إن فن « زهير ابن أبى سلمى المزنى » من خواصه كذا وكذا ، وأن فن الشاعر « امرئ القيس » متصف بكيت وكيت ، وفن « لبيد » من خواصه كذا وكذا ، وفن « طرفة » يتصف بكيت وكيت ، وذلك لا يهمنا كثيراً ، ولكن الذى يهم هو الخصائص العامة التى يشترك فيها عدد كبير من الشعراء بحيث تصبح صفة غالبة على هذا الشعر ، وليست مختصة بشاعر من الشعراء . وإن دراسة هذه الخصائص تتجه نحو القصائد الطوال والتى اشتهرت وذاع صيتها بين الناس والتى عدها الأدباء والنقاد من أجود أشعارهم ، ورأوا فيها المثل الأعلى لنتاجهم الشعرى بوصفها قصائد للشعراء الكبار الذين عرفوا بزعامة الشعر من أمثال امرئ القيس ، وعنترة ، والنابغة ، ولبيد وطرفة ، ، والحارث بن حلزة اليشكرى ، وزهير بن أبى سلمى المزنى ، والسر فى العناية بدراسة هذه المطولات أنها تعد أنموذجًا للأدب العربى ، ونمطًا يصور ماضى هذا الأدب ، كما أنه النموذج الذى أرسى تقاليد هذا الشعر ، وأمر بدهى أن لغة هذا الشعر من حيث إنها الأداة الأولى التى يستعين بها الشاعر الجاهلى على صنع شعره فنلاحظ أن هذه اللغة ليست لغة عادية ، ولكنها لغة أدبية مختارة وراقية ، إنها ليست لغة قبيلة من القبائل ، ولكنها لغة عامة عبر بها الشعراء جميعًا على اختلاف قبائلهم ، وهى تمثل ما تمثله اليوم لغة الكتابة بالنسبة إلى اللغات العامية المنتشرة فى أجزاء الوطن العربى ، وهذا يعنى أنها لغة عامة تطورت عن لغات أو لهجات القبائل العربية المختلفة ، وإن لم يمنع ذلك من أن تظهر بعض الفروق لدى بعض الشعراء من أثر بيئاتهم أو قبائلهم الخاصة ولكنها فروق ضئيلة قليلة الشأن[1] .

ولكن الطابع الغالب على هذا الشعر هو طابع اللغة الأدبية العامة . ومن ناحية أخرى فإن اللغة الأدبية لهذا الشعر لغة راقية وعالية ، وذلك ما نلحظه على الشعر

(١) مجلة كلية الآداب . جامعة القاهرة ، بحث للأستاذ أنو ليتمان . مايو سنة ١٩٤٧م ، القاهرة .

الجاهلى بوجه عام ، ولا تختلف بين شاعر وآخر إلا باختلاف شخصية الشاعر الأدبية والفنية ، واختلاف موضوعاته التى خاض غمارها ؛ وترنم فيها بشعره ، وإلا فاللغة كانت قدراً مشتركًا بين جميع الشعراء ، وهى اللغة العربية الراقية العالية من حيث تحديد معنى ألفاظها ، وضبط تراكيب عباراتها ، وأمر آخر وهو أن هذه اللغة الأدبية العامة الراقية نراها واضحة الصلة بالبيئة الجاهلية حيث إن اللغة كانت معبرة عن احتياجات حياة هذه البيئة ، ولم تكن تتسع للتعبير عن بعض جوانب حياة بيئات أخرى .

وهذا ما يفسر لنا قبولها لبعض الألفاظ الأجنبية فى التعبير عما يبدو جديداً ، أو طارئًا على حياة البيئة البدوية كما يلاحظ لدى بعض الشعراء[1] ولكن ذلك لم يكن مقصوراً على الشعر الجاهلى بل كان أمراً عامًا نلاحظه فى الشعر والخطابة والكتابة فقد كانت لغة الخطابة والكتابة أيضًا راقية عالية ، وقد قبلت كذلك ألفاظًا أجنبية ، وهنا نستطيع أن نقول : إن اللغة وما مرت به عن أطوار لم يكن من خصائص الشعر الجاهلى ، بل كانت وسيلة للشعر ولغيره ، وعلى ذلك فليس من الدقة أن نعد أطوارها ، ورقيها من خواص هذا الشعر كما حاول ذلك بعض الدارسين[2] .

ونحن نرى أن هذه الأطوار لم تضف جديداً ، وذلك إذا أردنا تعرف صفات الشعر الجاهلى ، وهى من ناحية أخرى وسيلة ، والخصائص المميزة هى صفات الشعر الجاهلى وليست صفات الوسيلة التى صنع بها هذا الشعر ، وبخاصة أن هذه الوسيلة قد كانت وسيلة لجميع الأنواع الأدبية .

وعلى ضوء ما أومأنا إليه آنفًا نستطيع أن نبين أهم خصائص الشعر فى العصر الجاهلى وهى :

أولاً : بناء القصيدة الجاهلية :

إن بناء القصيدة الجاهلية من أبرز خصائص الشعر فى العصر الجاهلى فقد التزمت القصيدة وزنًا واحداً وقافية واحدة ، كما أنها كانت تضم عديداً من الموضوعات ، وهى

---

(١) العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف ، ص١٠٤ وما بعدها بتصرف .

(٢) ذاته .

ظاهرة مرتبطة بالبيئة التى نشأ فيها هذا الشعر ، تلك البيئة التى كان يرضيها أن تتجمد موسيقاها فى الشعر ، وموسيقى البيئة نفسها أى مع رتابة الحياة وعدم التنوع الكثير فيها ، كما أن تنوع الموضوعات ، وتعددها فى القصيدة الواحدة يعبر عن الرغبة فى تعويض الرقابة ، والاطراد السائد فى موسيقى الحياة الصحراوية ، وهذا يعلل من ناحية أخرى اختيارهم لأهم نماذج الشعر الجاهلى من القصائد الطويلة المتعددة الموضوعات ، فقد كانوا يرغبون فى أن يسمعوا كثيراً من الأحاديث وأن يرووا كثيراً من الألوان مع طول سماعهم لأصوات وموسيقى مطردة ، وهذا يعنى أنهم كانوا يرغبون فى تلوين العاطفة التى يعبر عنها الانتقال من موضوع إلى موضوع لملء فراغ حياتهم ولرغبتهم فى التنوع الذى لا تحققه حياتهم الرتيبة[1] .

وعلى أية حال نستطيع أن نقول : إن الذى دفعهم إلى ذلك أن الشعراء أنفسهم وجدوا أن التنويع يتواءم والذوق الجاهلى يومذاك وبخاصة البدوى وأن عدم التنويع يدخل الملل والسآمة على النفس ، والمطلوب من الشاعر أن يسيطر بشعره على الأحاسيس ، ويخلب الألباب ، ويستهوى الأفئدة ليسمع الناس منه الشعر ، ولا يتحقق له ذلك إلا بالتنويع والانتقال من غرض إلى آخر فى براعة وقوة .

والقصيدة الجاهلية المتعددة الموضوعات نراها تستهل دائمًا بالغزل وذكر الأطلال والدمن البوالى ، وذكر ديار المحبوبة التى درست وعفت وانمحت آثارها وأصبحت مرتعًا للآرام والظباء ، فالشاعر يعرض لنا مشهداً عاطفيًا كئيبًا مؤثراً يرتبط بذكرياته الماضية ، وأيامه الخوالى ، ثم نراه ينتقل إلى غرض آخر كالمديح ، أو الرثاء ، أو الفخر ، أو ما إلى ذلك من الأغراض التى اشتهر بها الشعر الجاهلى كما يذكر المعاناة التى لقيها الشاعر فى رحلته وما يصادفه فيها من أهوال ومتاعب فبكاء الأطلال غرض جاهلى أصيل وظاهرة شاعت فى العصر الجاهلى ، وهى تعبر عن هموم الشاعر وقلقه ، ووطأة الحياة بعواملها السلبية على وجدانه فى حياة لا تكون إلا للأقوياء فالبكاء على الأطلال قصير ذاتى بل ربما يكون الجزء الدورى فى القصيدة بعد ما تصورناه ، إنها عملية إفضاء نفس ، وتعبير

(١) الشعر الجاهلى - تطوره وخصائصه الفنية د/ بهى الدين زيان ، ص١٢٦ وما بعدها ط دار المعارف ، القاهرة .

عن المعاناة والصراع فى داخل الشاعر وليست غرضًا غيريًا كما توهم بعض النقاد المحدثين[1] .

والمقدمة الطللية ليست جزءًا دخيلاً على القصيدة الجاهلية كما أنه لا يمكن الاستغناء عنه ، أو فصله عنها ، بل ربما تكون هى الجزء الذى يقصد إليه الشاعر .

ويقول الدكتور (سعد ظلام) ولعلى لا أكون مغاليًا إذا قلت إن الشاعر ربما قصد إليه قصدًا ، ولو وقف عنده دون أن يكمل يكون قد قال ما فى نفسه ، وأفرغ ما أثقله ، وأفضى بكل شحناته النفسية وهمومه وخواطره المثقلة وذات نفسه[2] .

ونحن نرى أن السر فى استهلال الشاعر الجاهلى قصيدته بالغزل وذكر الأطلال والدمن والبوالى ، ومنها يقصد إلى غرض آخر مثل الفخز ، والمديح ؛ لأن الحديث عن المرأة وما يتصل بها من ذكر الأماكن التى ارتادتها والمنازل التى سكنتها ؛ وكذلك ذكر جمالها ومفاتن جسدها ، وخصل شعرها كل ذلك حديث محبب إلى النفوس .

يقول الشاعر :

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

حتى إن سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما فضلته على من كان لديها من الشعراء معللة ذلك الحكم بقولها : لقد جعل حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء كما أنه حديث ملائم لبدء القصيدة حيث كانت علاقة الرجل بالمرأة تشكل جانبًا كبيرًا من حياة البيئة وهى ملائمة لطبيعة الحب فيها ، فقد كانت بيئة قاسية غير مستقرة فهى مبنية على النجعة والارتحال طلبًا للمرعى والكلأ والعاطفة القلبية متوائمة مع هذه الحياة غير المستقرة الثابتة ، فكان الشاعر الجاهلى يغنى حبه وسط مجتمع بدوى كانت المرأة الحرة فيه ممنوعة ، كما كان الوصول إليها صعبًا .

---

(١) من الظواهر الفنية د/ سعد ظلام ص١١٦ بتصرف .

(٢) ذاته .

ومن أجل ذلك كثرت الشكوى والحزن وأصبحت العاطفة الحزينة تمثل موقف الشاعر من حبه فى بيئة لها تقاليدها حتى صار بعض الشعراء الذين ليست لهم محبوبات يبدءون قصائدهم بالغزل حتى لا يكون خارجًا على العرف الأدبى ، أما بكاء الأطلال فى غير العصر الجاهلى فيعد تقليدًا ولا يمكن أن يكون بكاؤه بكاء طبيعيًا حيث لا توجد المعاناة التى يعيشها الشاعر الجاهلى ، وليست هناك أطلال ولا دمن بالية ، ولا هموم ولا ضغوط ولا يوجد ما ينتاب الشاعر فى هذه العصور مثل ما كان ينتاب الشاعر الجاهلى من قلق واضطراب نفسى ، فلا يوجد فى بكاء الأطلال عاطفة صادقة إنما هو تقليد مبتذل ، ولا يؤثر فى النفس ، ولا يستهوى الأفئدة ، بل ربما لا يجد قبولاً لعدم واقعيته ، أو بمعنى أدق حيث لا يوجد فيه صدق فنى .

أما الشاعر الذى كان ما يزال يسكن الصحراء فى العصرين الأموى والعباسى فقد تقبل منه بكاءه إذ ما يزال والصحراء موطنه بشرط أن نلمس فيه الصدق فى العاطفة ، والصدق فى التعبير[1] .

ونحن إلى هذا الرأى نميل حيث إنه ما يزال فى الشظف والرحلة والانتقال من مكان إلى آخر ، فيروى أن شابًا التقى بفتاة حسناء فبهرته بجمالها ، فقال لها : يرحم الله على بن الجهم فقالت له (ويرحم الله أبا العلاء) فسمعها غلام كان يمشى وراءها فقال لها ماذا يقصد بقوله ؟ وماذا تقصدين بقولك ؟ فقالت : يقصد بقوله قول على بن الجهم :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وأقصد بقولى (يرحم الله أبا العلاء) قوله :

فبادرها بالحزن أن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

فالشاعر الذى يستهل قصيدته بالغزل ، أو يبكى الأطلال والدمن البوالى ، والآثار المتهدمة فى ذلك العصر إنما هو مقلد للشعراء الجاهليين فحسب ، ونحن لا نمانع فى قبوله إذا ما استبان لنا فى شعره حرارة الشعور ، وصدق العاطفة ، ولا أظن أن واحدًا يفجئنا أو يطالعنا بذلك اللون فى هذا العصر الأنكد الذى يطالعنا فيه أصحاب الثقافة

(١) من الظواهر الفنية د/ سعد ظلام ، ص١١٦ .

الضحلة ، والخيال السقيم والقافية اللغوية بما أسموه بالشعر الحرأو المرسل ، والشعر العامى ، إلى غير ذلك مما يعد جناية على اللغة وأصحابها والحقيقة ليس اسمه الشعر الحر ، وإنما هو الشعر العر[1] .

ويقول « ابن قتيبة » وسمعت بعض أهل العلم يقول : « إن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فشكا وبكى ، وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها ، إذ كان نازلة العمد فى الحلول والطعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتجاعهم الكلأ وانتقالهم من ماء إلى ماء ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق ، وألم الوجد والفراق ، وفرط الصبابة ليميل نحو القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه ، لأن النسيب قريب من النفوس لا يط بالقلوب لما قد جعل الله فى تركيب العابد من محبة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقًا منه بسبب ، وضاربًا فيه بسهم حرام أو حلال ، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه ، والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل فى شعره ، وشكا النصب والسهر وسرى الليل وإنضاء الراحلة والبعير .

فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، وزمام التأميل ، وقرر عنده ما قاله من المكاره فى المسير ، بدأ فى المديح فبعثه على المكافآت ، وهزه على السماح ، وفضله على الأشياء ، وصغره فى قدره الجزيل ، فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام ، ولم يطل ويمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد ويستطرد (ابن قتيبة) فيقول : وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام فيقف على منزل عامر ، ويبكى عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى أو يرحل على حمار أو بغل فيصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذبة الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأواجز الطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والورد والآس لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار[2] .

(١) العر : الجمل الأجرب ، وكان يسميه بهذا الاسم المرحوم الدكتور أحمد الشرباصى .

(٢) من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى الدكتور/ سعد ظلام ص١١٧ وما بعدها .

وقد حاول ابن قتيبة أن يعالج فوضى النظام فى القصيدة وأن يضع لها بعض الضوابط التى تحكمها لما رأى بعض الشعراء قال قصيدة فى المدح غزلها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات ، ولما نبهه الممدوح معترضًا على جور غزله على المديح وطالب الاقتصاد فى الغزل فأتاه فأنشده قصيدة غزلها شطر بيت ، فقال له الممدوح ، لا هذا ولا ذاك ولكن ينبغى المواءمة بين الأمرين .

حاول ابن قتيبة أن يعالج هذا الخلل ، ويضبط الشاعر بنظام معين لا يخرج الشعراء عنه ؛ فخطط للقصيدة على النحو الذى ذكر بالبكاء على الأطلال ثم النسيب ثم بما لاقاه الشاعر فى رحلته من تعب وإرهاق ثم مدح فحولاً فيه مواهب الإعطاء ، والشاعر المجيد من سلك هذا المسلك[1] .

وظاهر تمسك (ابن قتيبة) بالمذهب القديم فى الشعر والنقد ، حين يضبط الشعراء جميعًا بهذا النظام لا يخرجون عنه ولا يتصرفون فيه ، ولا يحيدون عنه ، ولم يترك لهم أدنى حرية فى التصرف ، وهو قد قرر أن تبدأ القصيدة المادحة بالبكاء على الأطلال ، ولسنا مع (ابن قتيبة) فى هذا القرار حيث إن بكاء الأطلال كان أمرًا طبيعيًا فى القصيدة الجاهلية ، وقد زالت هذه الظروف ، فالشاعر الذى يخوض غمار البكاء على الأطلال يكون ذلك الغرض تقليديًا ومحاكاة للجاهليين ، وذلك لا ينم عن أصالة شعرية أو موضوعية .

والتمسك بهذا الرأى يفقد القصيدة العربية رواءها وجمالها ، وهذا رأى غير مقبول ولا معقول ، فالتصرف والحرية هما الوسيلة للإبداع والابتكار والتجويد .

ثانيًا : الفن القصصى :

والباحث فى الشعر الجاهلى يرى أن من بين الظواهر الفنية ظاهرة القصة حيث تلتقى بقصة شعرية طريفة تصف لنا واقعة من الوقائع ، وقصة من القصص تتكون من مناظر متعددة سائرة فى تسلسل منطقى ، وترتيب طبعى ، مما يكسبها جمالاً ، ويزيدها

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى ص٦ ، ٧ ط الأولى ١٣٣٢هـ .

رونقًا وبهاء ، ويتضاعف ذلك الجمال ، ويزداد الرونق والحسن والجمال إذا استطاع الشاعر تصوير المناظر تصويرًا دقيقًا مع إبراز المثيرات الحسية والمعنوية بجلاء ووضوح تامين ، ومن أمثلة ذلك قصة وصف « الفرس » للشاعر « أوس بن حجر » وقصة الحطيئة فى الأعرابى الفقير الذى فاجأه ضيف وهو يعيش فى عزلة ومعه زوجه وأولاده حفاة عراة يتضورون جوعًا وهم فى غاية من الهزال كأنهم أشباح ، والشاعر عناهم بقوله :

كفى بجسمى نحولاً أنى رجل ... لولا مخاطبتى إياك لم ترن

ثم فوجئ بهذا الضيف فانتابه الهم ، وسيطر عليه الأسى ، حيث لاقرى يقدم للضيف ، ومع الفقر المدقع والشائع يومذاك فى البيئة الجاهلية إلا أنهم كانوا إذا نزل بأحدهم ضيف بذل كل ما فى وسعه لإكرامه والترحيب به ، بل كان يرى سعادته فى إكرامه ، وإدخال البهجة على نفسه ، فهم الأعرابى بذبح ابنه حتى لا يسىء الرجل الظن به ، ثم فرج الله كربه بصيد سمين فغمرته الفرحة ، وعمته البهجة ، وباتوا جميعًا فى سعادة غامرة لإكرامهم الضيف ، وتوفير سبل الراحة له . فيقول :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل ... ببيداء لم يعرف ساكن رسما

أخى جفوة فيه من الأنس وحشة ... يرى البؤس فيها من شراسته نعمى

وأفرد فى شيب عجوزًا إزاءها ... ثلاثة أشباح تخالفهم بهما

حفاة عراة ما اعتدوا خبز ملة ... ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما

رأى شبحًا وسط الظلام فراعه ... فلما بدا ضيفا تهيأ واهتما

فقال ابنه لما رآه بحيرة ... أيا أبت اذبحنى ويسر له طعما

ولا تعتذر بالعدم على الذى ترى ... يظن لنا مالاً فيوسعنا ذما

فروى قليلاً ثم أحجم برهة ... وإن هو لم يذبح فتاة فقد هما

وقال هيا رباه ضيف ولا قرى ... بحقك لا تحرمه الليلة اللحما

فبينا هما عنت على البعد عانة ... قد انتظمت من خلف مسحلها نظما

عطاشا تريد الماء فانساب نحوها ... على أنه منها إلى همها أظما

فـأمهلهـا حتـى تروت عطاشـهـا ... فـأرسل فيـهـا من كنانتـه سـهـمـا
فخرت نحوص ذات جـحش سمينة ... قد اكتنرت لحـما وقد طبقت شـحما
فـيـمـا بشـره إذ جـرها نـحـوه أهله ... ويا بشـرهم لما رأوا كلمـهـا يدمى
فبـاتوا كراما قد قضـوا حق ضيـفهم ... ولم يغـرموا غـرمًا وقـد غنموا غنمـا
وبات أبـوهم مـن بشـاشـة أبا ... لضـيـفـهم والأم من بشـرها أمـا

وفى هذه الأبيات تصوير لما كان يعانيه الجاهليون من شظف العيش وقسوة الحياة ، وذلك ديدن سكان الفيافى والفلوات ومع ذلك كان الواحد منهم يتفانى فى إكرام ضيفه ، وبذل كل ما فى وسعه لإدخال البهجة على نفسه وإشعاره بالراحة والهدوء والاطمئنان ، كما أنه يجد فى ذلك لذة ومتعة وسعادة . فالأعرابى يسكن البيداء بعيدًا عن ضوضاء الناس وعجيج الكون ومع قسوة البادية وجوها الخانق إلا أنه يرى اعتزال الناس سعادة ، والوحدة فى سكناه للصحراء نعيمًا حيث إنه شرس عنيف قاس الطبع ، وفى بيته عجوز وثلاثة أولاد تخالهم أشباحًا من شدة الطوى والجوع ، وهم حفاة عراة لم يطعموا البر طوال حياتهم ، ثم رأى شبحًا فى الظلام خاله عدوًا يقبل عليه فارتعدت فرائصه خشية أن يكون قد أراد به شرًا ، فلما تبين له أنه ضيف تأهب للقائه ، واستعد لإكرامه ولكنه لا يملك من حطام الدنيا شيئًا ، فترى ابنه وقد حذره من الاعتذار بحجة العدم والبؤس والفاقة ، خشية أن يساء الظن بنا ويعتقد الضيف أننا أغنياء وبخلنا عليه بالقرى فبذلك تنال مذمة الناس وتعييرهم لنا بالشح والبخل ويسكت الأعرابى هنيهة ويستغرق فى التفكير ثم ينهض ويهم بذبح ابنه ليقدمه طعامًا لضيفه ، ثم يتمهل ويجأر إلى الله بالدعاء أن يرزقه بما يكرم به ضيفه ، فيعن له سرب من الحمر الوحشية يتقدمه قائده ، ثم يرد الماء ليشرب فيمهله حتى يرتوى من الظمأ . ويتقدم نحوه بحذر ويستل سهمًا من كنانته وهو أشد ما يكون تلهفًا إلى دمه ، ويشرب القطيع ويرمى بسهم من جعبة كنانته فيصيب واحدًا منها فيخر على الأرض وقد اكتنزت لحمًا وشحمًا فسر سرورًا كبيرًا ليتمكن من القيام بواجب الضيافة ، وباتوا جميعًا سعداء ، وقد أحس الضيف أنه بين أهله وذويه .

(١) المفضليات للضبى ، ص١٢٦ ط دار المعارف بالقاهرة .

ومن هذه القصة نفيد بأن من يرد الخير يفعله ، والعاقل الكريم هو الذى يتجنب ذم الناس ، ولا يكون ذلك إلا بفعل الخير ، وذلك لا يكلفه كثيراً فالخير ميسور ، ولا يوجد ما يؤلم الإنسان كسوء الخلق .

وكما سبق أن أومأنا إلى أن الأعرابى ساكن الصحراء كان يحسن استقبال الضيفان ، ويتفانى فى إكرامهم وبخاصة هؤلاء الذين يحتاجون إلى العون والمساعدة كالذين يضلون الطريق ليلاً ، وقد كانوا يوقدون النيران ليهتدى إليهم السائرون ، ويجدون لديها الكرم والنجدة .

وذلك كقول الشاعر (الأعشى) يمدح (المحلق) :

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

ومن أجمل ما جاء فى هذا الغرض قول الشاعر (عمرو بن الأهتم) :

ومستنبح بعد الهدوّ دعوته وقد حان من نجم الشتاء حقوق
يعالج عرنينًا من الليل باردًا تلف رياح ثوبه ويروق
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

وهذه الأبيات تصور لنا المخاطر والأهوال التى يلقاها السائر ليلاً فى الصحراء ، وكيف كان يهتدى إلى المقيمين فى البيداء حيث كان إذا ضل الطريق ، وعصفت به النوائب ينبح كما تنبح الكلاب ، وذلك لتجاوبه الكلاب فى النباح فيتهدى إلى أمكنتها حيث إنها تكون بصحبة أصحابها فيهتدى إليهم وينزل ضيفًا عليهم ، فيكرمونه ويقدمون له القرى ويهشون فى وجهه ، ويوفرون له مكان النوم والفراش ، ويذبحون له من الإبل كرامها ، ويطعمونه ، ثم يسمرون معه ، وبذلك يشعر الضيف أنه بين أهله وعشيرته ، وتذهب عنه الوحشة ويدبر الخوف .

ثم يسترسل الشاعر .

ثالثًا : الشعر الجاهلى شعر محافظ :

من خصائص الشعر الجاهلى أنه شعر محافظ ، وقد بلغ الشعر فى العصر الجاهلى درجة الكمال ، على أيدى كبار الشعراء من أمثال : (امرئ القيس ، وزهير)

وغيرهما ، ويعد امرؤ القيس زعيم الشعر الجاهلى حيث وصلت القصيدة الجاهلية على يديه إلى أن تكون أنموذجًا كاملاً ، وقد شاركه فى هذا الصنيع كثرة كاثرة من شعراء عصره ومن ثم بنيت القصيدة فى الجاهلية على تقاليد معينة كما أومأنا إلى ذلك آنفًا ، حتى إن القصيدة الجاهلية أصبحت ذات طابع شهير معروف لدى العلماء والأدباء والنقاد فى كل عصر من الأعصر .

والمحافظة على ذلك التقليد يعنى اقتناع الشعراء فى هذا العصر أن هذه هى القصيدة النموذجية والتى لا يجوز لشاعر الخروج على هذا التقليد حيث أصبح مذهبًا فنيًا لجميع الشعراء وبخاصة فى البيئة الجاهلية التى تعد الخروج على الأعراف والتقاليد تمردًا وعصيانًا ونحن نرى أن ذلك راجع إلى روح العصبية القبلية والتى سادت بل وتحكمت فى المجتمع الجاهلى ، والذى يقوم أصلاً على النظام القبلى المحكوم بأعراف وتقاليد معلومة لأفراد هذا المجتمع ومن يتمرد على هذه الأعراف ينفى خارج القبيلة ، ويطلب الجوار فإذا لم يجره أحد لجأ إلى الصحراء ممارسًا أعمال العنف والسطو واللصوصية .

ومن هنا نشأت فرقة الصعاليك برياسة زعيمهم (عروة بن الورد) وثمة أمر آخر ساعد على سيطرة هذه الروح ، وهو عدم وجود تغيرات اجتماعية تهز وجدان الشاعر الجاهلى ، كما أن الاتجاهات الثقافية لم تتغير كثيراً ، وتلك هى العوامل المساعدة على التغيير والتجويد فالشاعر الجاهلى محصور فى بيئته ولم يخرج بفكره خارجها مستسلمًا للأعراف والتقاليد التى تتحكم فيه وفى مجتمعه الجاهلى ، ومما لا يختلف فيه اثنان أن الإنسان ابن بيئته .

وثمة أمر آخر وهو ارتباط الشعر بأنموذج زعيمه (امرئ القيس) بحيث إنه كان زعيمًا اجتماعيًا فهو ابن ملك ، كما كان زعيمًا فى الشعر أيضًا وذلك له كبير الأثر فى رسوخ هذه التقاليد الفنية وإرساء قواعدها على النحو الذى أومأنا إليه آنفًا وهو شكل القصيدة الجاهلية حيث تستهل بالغزل والوقوف على الأطلال والدمن البوالى ثم الانتقال إلى غرض آخر كالمديح والفخر ، وكان من نتيجة هذا الطابع الغالب (طابع المحافظة) أن قبلت البيئة ثبات هذه التقاليد فى الشعر ، والتكرار فى موضوعاته ،

وتكرار بعض الصور كذلك ولم نجد فى ذلك ما ينفر ، وكان من نتيجته أيضًا أن محاولات التجويد بعد رسوخ التقاليد كانت قليلة ، وكانت داخلية أيضًا حين يجدد الشاعر فى التعبير أو فى الصور فى إطار الموضوعات التقليدية ، وقد عدوا من الجديد بعض التشبيهات لامرئ القيس ، وتجديدًا له فى الموضوع حين قالوا : (إنه أول من وقف واستوقف ، وهو يذكر الأطلال فى معلقته)[1] .

وقالوا : إن (عنترة) قد أبدع فى وصف الذباب حين قال يصف روضة :

وخلا الذباب بها فليس يبارح غردًا كفصل الشارب المترنم
مزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجدم[2]

وذلك معناه أن المحافظة أوضح من التجديد فى الشعر الجاهل حيث نرى الشعراء التزموا بتلك التقاليد ، بل إن التقاليد فرضت نفسها على الشعراء وعلى شعرهم .

وفى آخر هذا العصر حاول بعض الشعراء استخدام القصص وسيلة للتغيير ، كما حاول بعضهم أن يتجهوا فى شعرهم اتجاهًا أخلاقيًا دينيًا ، وكانت هذه المحاولات قليلة لم يتسع الشعراء فيها سواء كان ذلك فى استخدام القصص ، أو فى الاتجاه الأخلاقى كما نرى ذلك عند الأعشى ، وعدى بن زيد فى استخدام القصص أو عند (أمية بن أبى الصلت) فى الاتجاه الأخلاقى[3] .

وكان جل هؤلاء الشعراء من الذين رحلوا خارج بيئاتهم ، وكانت تلك المحاولات تجديدًا فى الشعر الجاهلى دون ريب ، بيد أنها كانت غير خارجة عن الإطار التقليدى للقصيدة الجاهلية ، وذلك دليل على أن روح المحافظة على تقاليد هذا الشعر كانت أعمق[4] .

---

(١) الأغانى ترجمة امرئ القيس .
(٢) شرح القصائد السبع لابن الأنبارى ص٣١٤ وما بعدها وخزانة البغدادى ١/ ١٢٧ .
(٣) الشعر الجاهلى - تطوره وخصائصه الفنية د/ بهى الدين زيان ص٤١ وما بعدها .
(٤) ذاته بتصرف .

حتى إننا نجد الشعراء الذين كانت لهم اتصالات ببيئات أخرى نراهم ساروا على النمط نفسه فى موضوع القصيدة ونظامها وترتيبها وذلك دليل على أصالة الشعر والشعراء فى هذا العصر ، وتلك خصيصة أخرى من خصائص الشعر الجاهلى :

خامسًا : أصالة الشعر الجاهلى :

يعد الشعر الجاهلى شعرًا أصيلاً حيث إنه يمثل المصدر الأول للشعر العربى كله ، والقمة الأولى فى تاريخه ، وذلك الشعر يعد بحق أصدق تعبير عن شخصية الشاعر وعن بيئته الجاهلية التى عاش فيها ، واستنشق أرجها ، وترعرع بين شعابها ووهادها ، وتنقل بين جبالها ووديانها وروابيها وهو صادق الإحساس فيما يعبر عنه ويتمثله ويحس به وذلك ما يعبر عنه فى عصرنا الحاضر (بالصدق الفنى) أى الصدق فى التعبير عما يحس به الشاعر ويلمسه ، ويشعر به فيجىء تعبيره صادقًا معبرًا عما يدور بخلده ، ويداعب إحساسه ، وتلك هى أصالة الشعر وقدرة الشاعر على التعبير ورسم الصور الموحية بألفاظ جزلة قوية .

كما أن أصالة الشعر الجاهلى ترجع أيضًا إلى أن الشاعر عاش فى البيئة الجاهلية يرقب ما حوله من جبال ووهاد وروابى وكلأ ونجوم ، ورعود وبروق وأمطار إلى آخره مما يقع تحت حسه ونظره ، وذلك الأمر دفعه إلى التعبير بصدق عن هذه الحياة وتلك البيئة تعبير إنسان يحس ويشعر بكل ما يجرى حوله ، فجاء شعره ترجمة صادقة عن انفعالاته وأحاسيسه ، وهو فى ذلك لم يكن مقتديًا بغيره إنما كان معبرًا عن ذاتيته مستوحيًا الصور والمشاهد من إلهاماته ، ومعايشته للبيئة بوجدانه ومشاعره .

كل ذلك ساعد على تغلب جانب الأصالة فى الشعر الجاهلى على جانب التقليد .

ومن ثم نجد أن لكل شاعر شخصيته المستقلة ، فشخصية (النابغة) مخالفة لشخصية (زهير) وشخصية (امرئ القيس) مخالفة لشخصية (لبيد) وشخصية (طرفة) مخالفة لهؤلاء جميعًا ، وهكذا فإنك تجد لكل شاعر ذاتيته وشخصيته المستقلة فى فنه مما يميزه عما سواه من الشعراء ، وذلك لا يمنع من وجود بعض التقليد لدى بعض الشعراء كما هو الشأن والعادة فى كل الأعصر ، بيد أن الشعر الجاهلى يتسم جله

بالأصالة ويندر فيه التقليد كما نرى ذلك لدى الشعراء أصحاب المطولات ، فالمطالع للمعلقات يرى أن كل شاعر له ما يميزه عن غيره من الشعراء .

كما أن كل معلقة فيها من السمات والمعالم ما يميزها عن بقية المعلقات وذلك دليل على اعتماد الشاعر على شخصيته وأن له من الصدق الفنى ما يوضح معالمه ويرسم ذاتيته ، وذلك لأن الشعراء أنفسهم نقاد يمقتون التقليد ولا يرون فيها صدقًا فنيًا ، بل كانوا يعدون التقليد لونًا من ألوان السرقة الشعرية .

يقول الشاعر « طرفة بن العبد البكرى» :

ولا أغير على الأشعار لأسرقها عنها غنيت وشر الناس ما سرقا(١)

وذلك الأمر يعنى أن (طرفة) وأمثاله من شعراء العصر الجاهلى يؤمنون بضرورة الأصالة ، وأن القيمة الفنية للشعر تكون فى الشعور بالذاتية وصدق الإحساس والتجربة الشعورية وتلك الأمور خلعت على أشعارهم جانبًا عظيمًا من الحيوية والجمال .

خامسًا : الشعر الجاهلى شعر طبع :

وهى سمة من السمات التى عرفها القدماء فى هذا الشعر ؛ إذ لاحظوا أن جل الشعر الجاهلى شعر طبع ، وأقله شعر صنعة وليس معنى ذلك أن الشعر الجاهلى جاء خلواً من صفات الفن حيث إن الشعر بوجه عام يتطلب جهد الشاعر ، وأن يقدح زناد فكره ليأتى بالروائع ، ولكن ذلك كان قليلاً بالنسبة لكثرة كاثرة من الشعراء ، فقلة من شعراء الجاهلية الذين كانوا يبذلون جهدًا فى الشعر لإكسابه صفة الفن ، وذلك ما نصفه بشعر الصنعة ، ويرجع هذا إلى أن الشاعر الجاهلى كان يترنم بالشعر تعبيراً عن عواطفه الجياشة ، وإحساسه المرهف دون أن يبذل جهدًا فى التفكير والإعداد لقول الشاعر ، ولعلنا ندرك الفارق بين شعر الطبع ، وشعر الصنعة إذا عرضنا صورتين لكل من امرئ القيس وهو شاعر مطبوع وزهير بن أبى سلمى المزنى وهو من شعراء الصنعة والذى اشتهر بالحوليات ، وذلك فى قول امرئ القيس واصفًا الليل :

---

(١) الديوان .

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازًا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل

ويقول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ... وعرى أفراس الصبا ورواحله

وامرئ القيس اشتهر بإجادة الوصف ومع ذلك نرى أن الصورة التى وصف بها الليل تخالف الصورة التى صور بها (زهير) حاله فى الحب ، وحرقة الجوى وذلك بعد أن آب إلى فكره وعقله ، إن امرؤ القيس قد صور الليل بموج البحر فى السعة والاضطراب وأنه مثل بناء أسدلت عليه الأستار ، ثم عاد تحت إحساسه بثقل الليل وطوله فصوره ، بحمل جاثم على صدره . ولا ريب أن هذه صورة فنية كاملة ، وهو مع ذلك نراه يخرجها إخراجًا طبيعيًا دون تكلف أو صنعة .

بيد أن (زهير) يقول : لقد عدت إلى الفكر والعقل فاستيقظ القلب من حبه (لسلمى) ومن أجل توكيد هذه الفكرة نراه يلجأ إلى الإتيان بصورة فريدة ونادرة ، ومع غرابتها وندرتها فهى صورة جميلة رائعة ، تلك هى صورة الأفراس والإبل حينما تنتهى إلى غايتهافترتفع عن ظهورها السرج والرحال إيذانًا بانتهاء الرحلة فرفع عن المطايا رواحلها وسرجها لتلتقط أنفاسها وتستريح من وعثاء السفر ومشقة الطريق وعناء الرحلة، والشاعر هنا يشبه صباه ، وحبه وهواه والذى كفه عن حب (سلمى) بهذه الرواحل وتلك الأفراس والتى مضت فى رحلتها حتى بلغت الغاية وهو قد بلغ الغاية من حبها ولم يعد يفكر فيها بعد اليوم ليريح بذلك قلبه وعقله وفؤاده من عناء الفكر ، ووقدة الغرام . وزهير فى هذه الصورة استطاع أن يجسد لنا المعنى ويجعلنا نحس بأن الصبا قد تجسد وصار شيئًا محسًا وملموسًا ومشاهدًا يرى رأى العين كما ترى الرواحل والأفراس المعراة من سرجها ورحالها ، وتلك هى صناعة (زهير) وقدرته الفنية فى عرضه لتلك الصورة الجميلة النادرة ، بيد أنه لم يصل إليها بيسر وسهولة ولكنه كد ذهنه وأجهد فكره

حتى يوافينا بهذه الصورة البديعة الرائعة فالصورة لدى امرئ القيس قائمة على الاستعارة مثل صورة (زهير) ولكن الاستعارة لدى امرئ القيس طبيعية وقريبة ، ولكنها عند (زهير) بعيدة مصنوعة ، وفى الصورتين جمال وفن .

ومن ذلك نخلص إلى أن الشعر الجاهلى فيه الطبع والصنعة ، والطبع لا يناقض الصنعة ، ولكن الفارق بينهما اختلاف الشعراء فى النواحى الفنية حيث إن كل شاعر له مقدرته الفنية المبدعة ، ومن هنا يأتى التفاوت .

والصنعة فى الشعر الجاهلى لم تخرجه عن طابعه المألوف ولم تؤثر على أصالته .

سادسًا : الشعر الجاهلى شعر عاطفة :

إن الشعر الجاهلى يقوم فى أغلبه على العاطفة ، وتلك ظاهرة فنية واضحة بالنسبة إلى الشعراء وإلى الموضوعات التى تناولوها حيث إن الشعراء الجاهليين عبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم وعواطفهم فى جميع الموضوعات التى تناولوها سواء فى الفخر أو المديح أو الغزل أو الوصف أو غير ذلك من الموضوعات والأغراض ، ومن ثم نرى روح الخطابة متغلبة على جل الشعر الجاهلى وهى ترينا أن العاطفة هى الدافعة للتعبير ورسم الصور البديعة الرائعة المترجمة عن أحاسيس وعواطف الشعراء فى ذلك العصر ، ولذلك نرى الشاعر الجاهلى يستعرض فى قصيدته بعد الوقوف على الأطلال والدمن البوالى حبه وحنينه ثم يصف رحلته وراحلته ثم ينطلق مادحًا أو هاجيًا .

ولا ريب فى أن العاطفة تعود إلى الخيال المحلق مما يترتب على ذلك الإتيان بالصور البدائية من تشبيه وكناية واستعارة ، ولو أن الشاعر الجاهلى بنى شعره على العقل والفكر لما استطاع الإتيان بهذه الصور وتلك التشبيهات والكنايات والاستعارات ، وللحق والنصفة نقول : إن تغلب العاطفة على شعر الجاهليين أمر غير منكور بيد أن بعض أشعارهم لم تخل من العقل والتفكير ، وهو المعروف بشعر الصنعة كما أومأنا إلى ذلك آنفًا وهى شائعة لدى كثرة من الشعراء من أمثال : زهير ، وامرئ القيس ، ولبيد ، وطرفة ابن العبد البكرى والأعشى .

سابعًا : وضوح الشعر الجاهلى :

إن الشعر الجاهلى شعر واضح لا غموض فيه ولا تعقيد ، والمعانى التى عمد الشاعر إليها معان قريبة لا لبس فيها ، وذلك راجع إلى فكر الشاعر وثقافته ، وقد كانت ثقافة أدبية مقبوسة من الأخبار الأدبية ، والمرويات الشعرية وما نجده فى أشعار الجاهليين من تأمل وفكر فذلك وافد من ثقافات الأمم المجاورة .

وهذا يدل على أن البيئة الجاهلية لم تكن بيئة ثقافات عميقة ، وأن الشاعر الجاهلى لم يصل إلى أن يكون له عقل فلسفى يتجه إلى المعانى الدقيقة أو الأفكار الفلسفية ، فهو يعتمد على بديهته وخياله أكثر من اعتماده على فكره وعقله ، ومن ثم كان تعبيره واضحًا لا يعوز القارئ متابعة مجهدة ، وما يتراءى لنا أحيانًا من صعوبة متابعة الشاعر لا يرجع إلى عمقه أو فلسفته بقدر ما يرجع إلى غرابة ألفاظه علينا فى هذا العصر[1] .

ونحن نميل إلى هذا الرأى حيث إن اللغة فى العصر الجاهلى بلغت أوج عظمتها ، وتبارى الشعراء والخطباء والأدباء فى استخدام الألفاظ الجزلة والتى بدت لنا فى هذا العصر وكأنها ألفاظ غير عربية لعدم تداولها واستخدامها ، والتمرس بالأساليب العربية القوية مما أدى إلى الهروب وبخاصة الشعراء المصريين من ميدان فصحانا الهيفاء ولغتنا القمراء ، وضادنا الدعجاء ، إلى ما يسمى بالشعر الحر أو المرسل بحجة أن ذلك من مقتضيات العصر عصر التمدن والرقى والحضارة ، وأن الناس لا يفهمون لغة النابغة ، وعنترة ولبيد فهذه تخص عصرها فحسب وكأنهم مطالبون بالنزول إلى مستوى القارئ أو السامع . والعكس هو الصواب يعنى أن السامع والقارئ مطلوب منه أن يعنى بنفسه حتى يرتفع بثقافته إلى فهم ما يقوله هؤلاء الشعراء كما قال أبو تمام لسائله حين قال له : لم تقول ما لا يفهم ؟ فقال له أبو تمام : ولم لا تفهم ما يقال ؟ وإن مقتضيات عصر التمدن والحضارة يوجب الالتزام بلغة القرآن الكريم والتى يمكننا عن طريق فهم مراميها وإيحاءاتها والتمرس بأساليبها فهم القرآن الكريم والسنة المطهرة وهما المصدران للمنهاج الإلهى .

---

(١) تطور الشعر الجاهلى وخصائصه الفنية د/ بهى الدين زيان ، ص١٤٩ وما بعدها بتصرف ط دار المعارف ، القاهرة .

كما أن اللغة العربية تتسع بغزارة ألفاظها وكثرة مترادفاتها لاستيعاب العصر بكل ألوانه وثقافاته ولله در شاعر النيل « حافظ إبراهيم » حين قال على لسانها :

رجعت لنفسى فاتهمت حصائى ... ونديت قومى فاحتسبت حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى ... عقمت فلن أجزع لقول عداتى
ولدت ولما لم أجد لعرائسى ... رجالاً أو أكفاء وأدت بناتى
وسعت كتاب الله لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء المخترعات ؟
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتى
أرى لرجال الغرب عزًا ومنعة ... وكم عزا أقوام بعز لغات[1]

إذًا ما يبدو صعبًا معقدًا راجع إلى غرابة الألفاظ وليس إلى عمق الفكرة حيث إن البيئة الجاهلية بيئة ساذجة ليس فيها مشكلات فكرية ، أو اتجاهات مذهبية كالذى نراه ونشاهده لدى الأمم المتمدنة فالغموض راجع إلى اللفظ والصنعة لا إلى العمق فى الفكر أو الفلسفة وتلك ظاهرة فنية غالبة على شعر هذا العصر ، ومثال ذلك ما نراه لدى الشاعر « زهير » حيث يقول فى وصف الحرب :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمو ... وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضرم إذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثقالها ... وتلقح كشافا ثم تنبح فتشئم[2]

فإذا فهمت معانى الألفاظ الواردة فى هذه الأبيات عرى المعنى حيث لا يوجد العمق الفكرى أو الفلسفة ، إنما أراد « زهير » أن ينفر المتحاربين من مغبة هذا الأمر ، وأن يثبت لهم بشاعة الحرب وفظاعتها ، وما يترتب عليها من مخاطر ومخاوف وتدمير وإهلاك للحرث والنسل فأتى بتلك الصور فالحرب مثل النار التى تقع على الهشيم ومثل الرحى

(١) الديوان جـ١ ، ص٢٠٢ وما بعدها . الطبعة السادسة المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٢ .
(٢) شرح القصائد السبع الطوال لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى ٣٧١هـ ٣٢٨ ت وشرح عبد السلام هارون ص٢٦٧ ، ٢٦٨ ط الرابعة دار المعارف بالقاهرة وديوانه .

التى تعرككم بثقالها ، ومثل الناقة الولود حيث لا ينتهى القتل ولا يقف عند الآباء بل يلحق الأبناء ويجعلهم يعيشون فى تعاسة وشقاء .

ثامنًا : الشعر الجاهلى شعر واقعى :

إن الشعر الجاهلى نزاع إلى الواقعية أكثر من نزوعه إلى المثالية يعنى أنه أكثر تعلقًا بما هو مادى محس ومشاهد لأن الشاعر الجاهلى ينتزع ذلك من واقع بيئته التى يعيش فيها فهو مندمج مع بيئته وما فيها من مظاهر ، ولذلك نراهم لم يتناولوا فى شعرهم الموضوعات المعنوية ، وما ذلك إلا لأنهم عاشوا ظروف البيئة الجاهلية مستمدين من واقعها تعبيرهم وتصويرهم لكل ما هو محس مشاهد فوصفوا الصحراء والسماء والنجوم ، والبروق والرعود والليل والخيل وما إلى ذلك من الأوصاف التى يعج بها شعرهم ، فقد كان اختيارهم لموضوعاتهم مما هو أمامهم وفى بيئتهم وتحت نظرهم ، كما كان اهتمامهم بالجوانب المعنوية ، وذلك يرجع إلى تفاعل الشاعر بالبيئة التى يعيش فيها ، وأصدق دليل على ذلك ما نراه لدى هؤلاء الشعراء من وصف المرأة وصفًا حسيًا ، فقد اهتموا بمفاتن جسدها ، وأجزاء جسمها ، فوصفوا الأنف بالسيف رقة واستواء ، والقوام بغصن البان ، كما أنهم وصفوا العيون وشبهوها بعيون البقر الوحشى فى السعة والجمال والشعر بالليل فى شدة السواد ، وكقنو النخلة المتعثكل فى تشابكه وغزارته ، ولم يهتم كثيرًا بوصف جمالها المعنوى مثل وصف حديثها أو صوتها أو خلقها ، أو عاداتها وطبعها ، إنه لم يعن بذلك عنايته بوصف القوام والأنف والشعر والعيون ومشيتها ونهودها وأردافها . ولقد كان لذلك كبير الأثر على تعبير الشاعر حيث لجأ إلى استخدام المجاز والتشبيه والكناية والاستعارة ومن هذا القبيل قول الشاعر « طرفة بن العبد البكرى » فى وصف حبيبته :

خذول تراعى ربربًا بخميلة تناول أطراف البربر وترتدى[1]

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال الأنبارى تحقيق هارون ط الرابعة ص ١٤١ دار المعارف .
الخذول : التى خذلت صواحبها وأقامت على ولدها وهو نعت الأنثى . وبرباء : ترعى مع الربرب وهو قطيع الظباء والبقر - الخميلة : الرملة . المنبتة ترتدى معناه : تعطب ثمر الآراك فتتهدل عليها الأغصان .

يريد أن يقول : والمرأة تشبه الغزال فى طول عنقها وحسنها ، وتشبه البقر فى جمال عيونها ، ترعى مع الربرب لأنها قد خذلت صواحبها وقطيعها فهى تراعى البقر ، وقد بان حسنها حيث إنها منفردة ولو كانت ضمن القطيع لم يستبن حسنها ولم يظهر جمالها ، فطرفة يريد أن يصفها بالنشاط والمرح ، فصورها بظبية تحاول أن تنال من ثمار الشجر مستظلة بأوراقها وهى بلا ريب صورة مادية تجسم الوصف وهو أن الظبية تمد عنقها فى محاولة لتناول الثمر ، ثم تعود لتختفى بين أوراق الأشجار وتلك نزعة واقعية تعد من بين الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى .

تاسعًا : الشعر الجاهلى مرتبط بالبيئة :

وثمة خصيصة أخرى ، وظاهرة فنية فى الشعر الجاهلى وهى ارتباطه ببيئته ، وبخاصة البيئة البدوية ، كما أومأنا إلى ذلك آنفًا لدى تناولنا للظواهر الفنية فى العصر الجاهلى ، فاهتمام الشاعر الجاهلى بموضوعاته جاء وليد البيئة التى عاش فيها سواء كان ذلك فى الغزل أو الوصف أو الهجاء أو غير ذلك من الأغراض ، فإذا تغزل ذكر الأطلال والدمن البالية ، وإذا ركب وصف مطيته ، وإذا سرح نظره وصف السحاب والبرق والرعد والروابى وما إلى ذلك من ظواهر الطبيعة ، وإذا فخر كان فخره بنفسه وبقبيلته ، كقول « عنترة العبسى » :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر فى لبان الأدهم
مازلت أرميهم بغرة وجهه ... ولبانه حتى تسربل بالدم
ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدم
وازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلى بعيره وتحمحم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... أو كان لو علم الكلامى مكلمى[1]

(١) شرح القصائد السبع الطوال للأنبارى تحقيق هارون ط الرابعة ص٣٥٨ - ٣٦١ سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م دار المعارف ، القاهرة .

وقوله :

أنا فى الحرب العوان غير مجهول المكان

أينما نادى المنادى فى دجى النقع يرانى

وقول اخر :

إنا لمعشر أفنى أوائلهم قيل الكماة ألا أين المحامونا

وهى معان وثيقة الصلة بالبيئة الجاهلية والتى كان نظامها نظامًا قبليًا قائمًا على العصبة والتفاخر ، وإذا تغزل جاء غزله وصفًا لمعان جزئية ، كوصف مشيتها مثل قول الشاعر :

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل

أو وصف نهديها وردفيها ، وذلك كقول الشاعر :

أبت الروادف والثدى لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورا

وقول « كعب بن زهير » أيضًا مع وصفه لطول قامتها :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

إلى غير ذلك من التشبيهات المنتزعة من البثيئة الجاهلية ، فهو يصفها بالسحابة فى مشيتها . فلا هى مسرعة ولا بطيئة . ثم يصف بروز النهدين وغلظ الأرداف - وكان ذلك مما يعجبون به - حتى إن القميص لا يمس بطنها ، ولا يلتصق بظهرها ، وإذا فخر كان حديثه عن النجدة والكرم وبخاصة فى ليالى الشتاء ، كما يتحدث عن الشجاعة وشرب الخمر ومشاركته فى اللهو والملذات ، يقول عنترة بن شداد العبسى :

هلا سألت القوم يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وفى الكرم يقول الشاعر الجاهلى :

فإن يك فى من عيب فإننى جبان الكلب مهزول الفصيل

وقول طرفة بن العبد البكرى :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآداب فينا ينتصر

وقول الخزيمى[1] :

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب[2]

وتلك موضوعات ومعان مقبوسة من البيئة الجاهلية ولم تكن بمنأى عنها ، ومن الناحية الأسلوبية جاء أسلوبهم مرتبطًا أيضًا ببيئتهم ، ولم يطلق الشاعر الجاهلى العنان لفكره بل ظل حبيس البيئة يستلهمها ويستعين بها ويستمد منها وحى قريحته . ولقد كان لذلك أثره الواضح على موضوعاته ووسائل تعبيراته . فإذا وصف نراه يقتبس تشبيهات من بيئته ولا ينطلق لسواها ، ومثال ذلك وصف (امرئ القيس) لفرسه بأن ساقيه كساقى الظبى وأنه مثل الذئب فى سرعته وكالتتفل - وهو ولد الثعلب - فى تقريب رجليه الخلفيتين من الأماميتين من شدة العدو .

نراه يقول :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل[3]

ولذلك كان الشعر الجاهلى مرتبطًا أشد ما يكون الارتباط بالبيئة ، وتلك ظاهرة فنية وخصيصة من خصائص الشعر الجاهلى .

عاشرًا : التعبير فى الشعر الجاهلى تعبير حيوى :

ومن بين الخصائص والظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى حيوية التعبير ، وتلك ظاهرة تنتظم جل القصائد الجاهلية ، ويرجع ذلك إلى أصالة الشعر الجاهلى ، والعاطفة الصادقة والنزعة الحسية بجانب الموسيقى المنبعثة من الألفاظ الجزلة القوية .

---

(١) هو إسحاق بن حسان بن قوهى كما فى الحيوان ١/ ٢٢٤ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١١ تحقيق الشيخ عبد السلام هارون .

(٣) الديوان ص٢١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الثانية دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤م .

يقول امرؤ القيس :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
أغرك منى أن حبك قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وإن تك قد ساءتك منى خليقة ... فسلى ثيابى من ثيابك تنسل[1]

فنحن نرى الأصالة متمثلة فى هذه الأبيات حيث الصدق الفنى فى التعبير والألفاظ الموحية ، والعاطفة الجياشة عاطفة محب ولهان وعاشق آس حزين أمام محبوبة مترعة بالدلال وأن حبها قاتل له ، وأنها تأمر القلب فيفعل ، كما أننا نرى القالب الموسيقى غير مقصور على الأوزان ، بل يتعدى ذلك إلى توفير قيم موسيقية جديدة مثل : التصريع فى (التدلل) و (أجملى) والوقوف عند بعض الألفاظ التى جاءت فى وزنها موافقة لوحدات الوزن مثل : (أفاطم مهلاً) ، أغرك منى ، (فسلى ثيابى) والتوافق فى أصوات بعض الكلمات مثل : سلى ثيابى من ثيابك تنسل[2] .

ثم التعبيرات غير المباشرة التى تقوم بتجسيم المعانى من مثل قوله : (حبك قاتلى) وأنك مهما تأمرى القلب يفعل فالقلب يؤمر ويفعل ، ثم صورة الثياب التى يسل بعضها من بعض كناية عن النأى والافتراق .

كل هذه العناصر تبين لنا بجلاء ووضوح تامين مدى ما وصل إليه الشاعر الجاهلى فى توفير الأسباب التى جعلت التعبير مفعمًا بالحيوية التى جعلت ذلك الشعر قريبًا من نفوسنا جاريًا على ألسنتنا ، وذلك ما ضمن للشعر الجاهلى صفة البقاء .

حادى عشر : توافر القيم الفنية فى التعبير :

وتلك ظاهرة أخرى من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى ، وهى سر قوته وجماله ، ومن أهم وأبرز هذه القيم الفنية ما يلى :

---

(١) الديوان ، ص١٢ ، ١٣ وشرح القصائد السبع الطوال ص١٩ وما بعدها .

(٢) الشعر الجاهلى خصائصه وتطوره د/ بهى الدين زيدان ص١٦٦ وما بعدها بتصرف .

أولاً : القيمة الموسيقية :

القيمة الموسيقية وما توفره من أوزان وقواف تلاءمت كثيرًا والعاطفة التى يحملها هذا الشعر ، هذا بجانب قيم أخرى كاختيار الكلمات ذات الأصوات المشابهة ، أو ذات وزن واحد أو متقارب أو من اختيار مقاطع متوازنة داخل البيت الواحد[١] .

وقد نرى ذلك ملموسًا فى قول الشاعر (امرئ القيس) :

مكـــر مفـر مقـبل مـدبـر معـًا كجلود صخر حطه السيل من عل[٢]

وقوله أيضًا :

مسح إذا ما السابحات على الوفى أثـر الغـــبار بالكـــديد المرطـــل[٣]

وقول زهير بن أبى سلمى :

بكرن بكورًا واستحرن بسحـرة فهن ووادى الرس كاليد للفم[٤]

وقول الأعشى :

إذ سامه خطتى خسف فقال له مهما تقله فإنى سـامع حار[٥]

فالكلمات « مكر مفر مقبل مدبر معًا » و « مسح إذا ما السابحات على الوفى » و«بكرن بكورًا واستحرن بسحرة» و « إذ سامه خطى خسف فقال له » هذه الأصوات وتلك الأوزان الداخلية من بين القيم الموسيقية التى حرص الشاعر الجاهلى على أن تمثل ناحية من نواحى الجمال فى شعره وكانت من القيم الفنية فى هذا الشعر .

ثانيًا : اللون :

وقد مثل اللون قيمة فنية أخرى حيث حرص شعراء الجاهلية على ملاحظة ألوان الأشياء ، أو ما يتمثلونه من ألوانها ونقل ذلك إلى الشعر . ومن ثم اهتموا بإبراز

(١) الشعر الجاهلى ، خصائصه وتطوره د/ بهى الدين زيدان ، ص١٥٧ بتصرف .

(٢) الديوان . (٣) ذاته . (٤) الديوان .

(٥) الديوان ص١٧٩ مقطوعة رقم ٢٥ شرح وتعليق د/ محمد حسين أستاذ الأدب العربى المساعد بجامعة فاروق نشر مكتبة الآداب بالجماميز ، دون تاريخ .

الخسف : الذل . حار : ترخيم « حارث » .

الصفات الدالة على اللون فى الصور التى ينقلونها أو يصنعونها فإذا وصف امرؤ القيس فرسه ، ذكر لونه قائلاً إنه « كميت » وذلك فى قوله :

كميت يزل اللبد عن صهواته كما زلت الصفواء بالمعتزل(١)

وزهير بن أبى سلمى يحرص على لون الستائر المحيطة بالهودج فيشبهها بالدم فى شدة الحمرة كما يشبه فتاة الصوف المصبوغ بحب القناء ، والماء الذى ورده أحباؤه أزرق صاف ، فيقول « زهير » :

كأن فتاة العهن فى كل موقف وقفن به حب الفنا لم يحطم
بكرن بكوراً واستحرن بسحرة فهن ووادى الرس كاليد فى الفم
فلما وردن الماء زرقًا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم(٢)

كما أن التعبيرات المجازية لدى الشعراء الجاهليين تزيح الستار عن بعض الألوان وبخاصة فى التشبيهات والاستعارات التى تجئ لصنع صورة أو للتخيل أمام القارئ أو السامع وهى بحق تعد مصدر إغناء للأشكال والألوان فوصف امرئ القيس لفرسه يرينا أكثر من صورة فهو - أى للفرس - كالصخرة والسيل والمطر ، والمرجل ، وكخذروف الوليد ، والظبى والنعام والذئب والتتفل ، ومداك العروس وصلابة الحنظل ، وهكذا من الأوصاف التى خلعها على فرسه وفيها العديد من الألوان ، فيقول :

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل
على الذيل جياش كأن اعتزامه إذا حاش فيه حميه على مرجل
مسح إذا ما السابحات على الوفى أثرن الغبار بالكديد المرطل
يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثقل
درير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه بخيط موصل
له أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل(٣)

---

(١) الديوان ص٢٠ وشرح القصائد السبع الطوال : هارون ص٨٤ .
(٢) شرح القصائد السبع الطوال ص٢٤٩ - ٢٥١ .
(٣) شرح القصائد السبع الطوال ص٧٤ - ٧٩ والديوان ص٢٠ - ٢١ .
يزل الغلام . هكذا فى شرح القصائد السبع وفى الديوان (يطير) .

ثالثًا : الحياة والحركة :

وهى تمثل قيمة فنية كبرى فى هذا الشعر حيث إننا نجد فى الصورة الشعرية الحياة تجرى ، والحركة تدب فيها بحيث نرى الصور أمامنا متحركة وكأنها أجسام حية تجرى وتتحرك وتكر وتفر ، وتحاور وتتلفت ، وتتكلم وتشتكى ، ومن أروع تلك الصور قول الشاعر « عنترة العبسى » فى وصف فرسه :

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربلى بالدم

فازور من وقع القنا بلبانة ... وشكا إلى بعبرة وتحمحم

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمى

فالصورة التى عرضها الشاعر الجاهلى « عنترة بن الشداد » وقد بدا فيها وهو يدفع جواده ليتقدم إلى صفوف الأعداء فى حين أن رماحهم تمطر الحصان فتمزق جسده حتى إنه تسربل بالدم . ونظرة إلى كلمة « تسربل » بدلاً من « تغطى » تلك اللفظة الموحية بأن الدم غطى كل جزء من الحصان بيد أن كلمة (تغطى) لو أن الشاعر استخدمها لما أدت هذا المعنى ، فهى تفيد أن بعض أجزاء الحصان غطاه الدم ، ولكن (تسربل) يعنى أصبح الدم كاسيًا جسده كما يكسو السربال جسد الإنسان ويغطيه .

وترى الجواد يتلفت إلى (عنترة) ويشكو له ما أصابه من إعياء وما ألم به من نصب وإجهاد طالبًا منه الترفق به والحدب عليه ، وذلك بعبرات انحدرت من عينيه ، وسالت على خديه وبزفرات مكتومة فى صدره وتلك القوة الفنية ، والصورة البديعية الرائعة الخلابة ، إنما هى ميزة للأدب من بين الفنون جميعها حيث لا نجد فنًا من الفنون الجميلة فى وسعه أن يبدع صورة حية تتحرك وتتكلم ، وتشكو وتتألم سوى فن الأدب وهى أيضًا قيمة تزيد فى حيوية التعبير حيث نظر الشاعر الجاهلى إلى العالم من حوله ، وتمثله أمامه بكل ما فيه من حركة ، وكما رأى هذه الحركة فى الأشياء المادية المنظورة رآها كذلك فى العاطفة فامرؤ القيس نظر إلى جواده متحركًا ولم ينظر إليه واقفًا ، وكذلك (زهير) حيث وصف الظعائن فى رحلتهن ، ووصف طريق سيرهن ، وفعل ذلك (طرفة ولبيد)

وذلك فى نقل المشاهد بما فيها من حركة ، ومن هذا القبيل وصف (زهير) للآرام ، والبقر الوحشى التى وجدها فى دار محبوبته بعد رحيلها فيقول :

بها العين والآرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

فهى صورة لحركة الحيوانات فى دار حبيبته الراحلة حيث الآرام والبقر الوحشى تسير قوافل بعضها خلف بعض ويزيد على هذه الصورة أن أولادها كن ينهضن من أماكن متفرقة ، وهى لوحة فنية يعجز الرسام الماهر عن استيعابها فى لوحة من لوحاته ، وكما رأى الشاعر تلك الحركة فى الأشياء المنظورة المرئية المشاهدة رآها كذلك فى الفكر والعاطفة وما لهما من أثر نفسى ، ونلاحظ ذلك فى نقلة الشاعر من تعبيره المباشر إلى التعبير المجازى والذى يتسع لمعانٍ كثيرة وينقلنا من جو رتيب إلى جو آخر فيه تجديد ، وذلك مثل قول الشاعر (لبيد) .

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها

فنقلنا التعبير المجازى من جو السيول والأطلال إلى جو الكتب والأقلام .

وتلك حركة عاطفية وفكرية لها كبير الأثر فى تجديد نشاط السامع والقارئ حيث يتأمل وجه الشبه بين الصورة المجازية ، وصورة جلاء السيول عن الأطلال ، وأحيانًا يكون الانتقال إلى جو مقابل للجو الأول وذلك ما يعرف باسم المقابلة ، يقول الشاعر امرؤ القيس :

يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثقل

رابعًا : التشخيص :

وثمة قيمة أخرى تضم إلى القيم السالفة وهى (التشخيص) وهى ذلك الاتجاه إلى إبراز الجوانب المادية فى الصورة التى يقرضها الشاعر ، أو عرضه للصفات المعنوية فى ثوب مادى وهى قيمة موحية ، ونرى ذلك فى ذكر الشاعر لأسماء الأماكن والمياه ، فتلك جوانب مادية تساعد على تشخيص اللوحة الفنية التى يستعرض الشاعر فيها حبه القديم وتعلقه بحبيبته ووصفه لمنزله بعد رحيلها عنه وكيف درس ، وانمحت آثاره ،

وتناوشته الرياح الهوج وطمست معالمه بما حملت من رمال ، وذلك كله يكون جزءًا بارزًا فى اللوحة التى يرسمها لنا الشاعر الجاهلى .

ويلاحظ ذلك فى معلقات الشعراء (امرئ القيس ، ولبيد ، وزهير) حيث نرى ذكر الأماكن بارزًا فى هذه المعلقات ، كما كان عرض الصفات المعنوية فى ثوب مادى تأكيدًا لهذا الاتجاه لدى هؤلاء الشعراء وذلك كقول (زهير) الذى أومأنا فيه إلى انتهاء عهد الصبا والشباب فقال :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

وثمة أمر آخر وهو حرص الشاعر الجاهلى على استيفاء الصورة وعرضها كاملاً كقول (زهير بن أبى سلمى) حب الفنا لم يحطم وقول امرئ القيس كجلمود صخر حطه السيل من علٍ .

مما تقدم يتضح لنا أن التشخيص قيمة فنية كغيرها من القيم التى سبق أن ذكرناها آنفا ، وقد خلعت على الشعر الجاهلى طابعًا فنيًا يعد من بين الظواهر الفنية لهذا الشعر ، وتلك هى الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى أو الصفات الأساس أو الغالبة على هذا الشعر .

ثانى عشر : العناية بالألفاظ والعبارات :

والشعراء الجاهليون اهتموا بالألفاظ والعبارات ، فالألفاظ جزلة ، والعبارة منتقاة تؤدى الغرض المقصود ، بما تحمله من قوة وتأثير فى نفوس السامعين ويتجلى ذلك فى الحوليات ، وهى القصائد التى كان أصحابها يبالغون فى تجويدها فيمكث حولاً كاملاً ، ولذلك تسمى بالحوليات ومن أصحابها (زهير) والنابغة الذبيانى . والدليل على أن الجاهليين يميلون إلى الألفاظ الجزلة القوية والعبارات المنتقاة والأساليب المتخيرة ، تلك الألقاب التى خلعت على هؤلاء الشعراء واشتهروا بها ، كالمهلهل والذى قيل إنه سمى بذلك لأنه هلهل ألفاظ الشعر يقول امرؤ القيس : (ومهلهل الشعراء ذاك الأول) كما قالوا عن (المرقش) سمى بذلك لأنه رقش الشعر وزينه وزخرفه ، وهكذا قالوا فى

(الطفيل الغنوى) و (علقمة الفحل) و (المثقب العبدى) و (النابغة) و (المتنخل) وإن كانت بعض الروايات تعلل تلك الألقاب بأنهم لقبوا بتلك الألقاب لكلمات وردت فى أشعارهم بهذه الألفاظ ، وفى أبياتهم الشعرية كانوا يتحرون الدقة فى التعبير ، فليست هناك ألفاظ زائدة بل كل لفظ يؤدى معنى فلا نجد فى أبياتهم حشوا ولا زخرف مصطنع ، فالأسلوب قوى رصين وجزل متين ، يزيد الصورة الشعرية حسنًا وجمالاً ، وما يبدو لنا غريبًا فى هذا العصر ليس سببه براجع إلى استخدام هؤلاء الشعراء لألفاظ غريبة بل كانوا يستخدمون الألفاظ الشهيرة المعروفة لديهم جميعًا وجارية على ألسنتهم حيث إن الشاعر يريد اكتساب الشهرة ، وذيوع الصيت كما يود انتشاراً لشعره ، وأن يردد الناس قصائده ، ويسير بها الركبان .

إنما الألفاظ تبدو غريبة بل وثقيلة على الألسن بالنسبة لنا فى هذا العصر الأنكد الذى عم فيه الجهل باللغة أو كاد ، بالإضافة إلى عدم التمرس بالأساليب العربية القوية ، أما بالنسبة لهم ولعصرهم فكانت تلك الألفاظ يسيرة سهلة على أسماعهم وأفهامهم وألسنتهم فاللغة لغتهم ، وجارية على ألسنتهم فلا صعوبة ولا غرابة ، فالشعر الجاهلى يدل دلالة حاسمة على الثراء اللغوى لدى الشعراء فكل شاعر بلا ريب كانت لديه القدرة على التعبير بما لديه من ذخيرة لغوية لا ينضب معينها ولا يجف ينبوعها وخير شاهد على ذلك « المعلقات » ، والتى نراها على وزن واحد وقافية واحدة ، ففى مكنته أن يأتى بمئات الألفاظ المتفقة فى الحرف الأخير ، ذلك الذى ساعدهم على التزام وحدة القافية .

أما فى ذلك العصر فإننا نرى الشاعر ينتقل بعد بيت واحد إلى قافية أخرى فإن دل ذلك إنما يدل على الإفلاس اللغوى ، والجهل المركب بالأساليب العربية ، وعدم التمرس بها واستخدامها فى المجالات العامة والالتزام بها وبخاصة وسائل الإعلام من إذاعة مسموعة ومرئية بل إنها تكيد لها وتجعل الناشئة والشباب ينفرون منها بما لديهم من إمكانات متاحة فى ذلك الغرض ، وما يعرضونه على الشباب والشواب من أفلام هابطة ، ومسلسلات خليعة ماجنة وألفاظ مكشوفة متردية حتى رأينا من يطالعنا بشىء يقال إنه شعر عامى ، ومما يؤسف ويؤسى أنى سمعت يومًا شابًا يدعى أنه شاعر يقدم دعيا آخر فيقول عنه : « ونسمع الآن زعيم الشعر العامى » فبدت العامية

ولها شعر ، وشعرها أصبح له زعيم ، ثم سمعنا بعد ذلك ما أصابنا بالغثيان وفى الوقت نفسه بالحزن والأسى الممض لما أصاب هؤلاء القوم من إفلاس لغوى ونضوب خيال[1] .

ونحن نعد ذلك الأمر عدوانًا آثمًا بل مؤامرة ضد لغة القرآن الكريم والسنَّة المطهرة .

وعودة إلى الشعر الجاهلى وهو مجال الكتابة والحديث الأساسى فنقول مما لا ريب فيه أن الشاعر الجاهلى بلغ من المهارة اللغوية وانتقائه العبارات وتخير الألفاظ التزامه وحدة الوزن الشعرى فى القصيدة كلها ، ومع ذلك تجئ القصيدة متساوقة منسجمة متناغمة ومتوافقة فى الإيقاع ، وهذا يدل على ما يتمتع به الشاعر الجاهلى من ثروة لغوية واسعة تمكنه من اختيار ما يحلو له من الألفاظ .

ثالث عشر : المحسنات البديعية :

إن الشعر الجاهلى لدليل على أن البلاغة كانت نظرية لدى هؤلاء الشعراء حيث كان الشعر ينثال على ألسنتهم انثيالاً وترد الألفاظ والتراكيب على ألسنتهم طوعًا لا كرهًا . والباحث أو الدارس للشعر الجاهلى يلمس أنه التعبير أو الصورة خالية تمامًا من الصنعة والتكلف ، إنما هى تجئ طبعية وبالفطرة وعلى السجية ، وما ورد فى أشعارهم من محسنات بلاغية كالتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية ، والجناس والطباق ، إنما جاءت طبعية وعفو الخاطر لا تكلف فيها ولا صنعة ، ودون أن يبذل الشاعر الجاهلى فيها جهدًا ومن غير أن يقدح زناد فكره ليجئ بهذه المحسنات ، وذلك سر قوتها وجمالها ، وسيطرتها على نفوس السامعين وأحاسيسهم .

رابع عشر : الروح الجماعية ووحدة المشاعر :

ومن بين الخصائص أيضًا أن الشعر الجاهلى يبدو فيه الروح الجماعية ووحدة المشاعر بجلاء ووضوح تامين حيث إن الشاعر فى الأغلب الأعم يتحدث عن قبيلته فى

---

(١) حدث ذلك فى قصر الثقافة بسوهاج عام ١٩٨٧م فى أمسية شعرية .

الفخر والهجاء ، والإنذار والوعيد ، ولعل ذلك هو السر فى أن العرب أو القبيلة العربية كانت لا تحتفل ولا تقيم الموائد إلا إذا نبغ فيهم شاعر ، أو ولد لأحدهم مولود ذكر ، فكانوا يرون فى الذكر أنه هو الذاب عن الأعراض ، وحامى الحمى ، وهو الذى يحمل السيف فى المعارك ، والشاعر لا يقل شأن عنه فهو الزائد عن الأعراض ، والمدافع عن الأحساب والأنساب يهجو من هجاهم ، ويفاخر بقومه وما لهم من سجايا حميدة ، ويشيد بانتصاراتهم ، ويمجد فرسانهم ، ويعدد مناقب الآباء والأجداد وما لهم من مجد وشرف ، ويجىء شعره معبراً عن قومه وقبيلته ، فالشاعر ذو مكانة مرموقة ، ومنزلة سامية ، فقد كان وتر القبلة الحساس ، وقلبها الخفاق ، وعينها المبصرة ، وسيفها البتار ، ومحاميها المدره ولسانها الذرب ينافح عن كرامتها ، ويذود عن ذمارها ، ويعالن الناس بمناقبها ، ويشيد بمآثرها ، ويفاخر بشمائلها ، ويرمى أعداءها رماحًا فاتكة فهو منها بمثابة الصحافة من الأحزاب ، تدافع عنها ، وتذب عن بيضتها ، وكان الشعراء كموسيقى الجيش يثيرون الحماس فى النفوس ، ويلهبون الحمية فى الصدر ، وكانوا من أرقى الطبقات فكراً ، وأصفاهم لبًا وأرقهم شعوراً وأعظمهم شأنًا ، وأرفعهم مقامًا ، ولذلك كانت القبيلة تقر عينًا بالشاعر ينبغ فيها ، وتجله وتلتف حوله التفاف الهالة بالقمر .

يقول ابن رشيق : كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة لذكرهم[1] .

ولا غرو فالنظام فى العصر الجاهلى نظام قبلى فهو مجتمع وحدته القبيلة ، وكل قبيلة لها رئيس يتحمل القسط الأكبر فى المغارم والديات وله فى مقابل ذلك حق السمع والطاعة من أفراد قبيلته والخارج على هذا النظام يعد متمرداً وينفى خارج القبيلة فيطلب الجوار لدى إحدى القبائل أو يصير لصًا فاتكًا قاطعًا للطريق ومن هذا نشأت فرقة الصعاليك الشهيرة ، ولئن كانت الروح الجماعية هى السائدة فى ذلك العصر إلا أننا نرى أن الشاعر كان يتحدث عن نفسه فى أمور كثيرة ، فكان يفاخر بشجاعته ، ويترجم عن

(١) العمدة لابن رشيق .

إحساسه وعواطفه ، بيد أنها قليلة إذا عدت بالنسبة لفخره بقبيلته وقومه وماله من جود، وما هم عليه من كرم وشجاعة ونبل ، وبيان وحكمة .

وذلك دليل على ما كان يتمتع به الشاعر فى العصر الجاهلى من حرية فكرية ينعكس أثرها على شعره ، كما تدل على أنه كان مدفوعًا إلى ذلك بدافع قبلى وطابع غرزى ، والطابع القبلى والغريزة هما الدافعان إلى امتداح قومه والفخر بما لهم من جود وعزة يعطينا فهمًا آخر وهو شدة التماسك والوحدة بين أفراد القبيلة بدافع العصبية .

خامس عشر : وحدة المعانى وتنوع الصور :

تدور الموضوعات فى الشعر الجاهلى حول معان كثيرة متعددة ، فنرى المعنى الواحد يتعاوره أكثر من شاعر ، كما أننا نرى الظاهرة البارزة فى أشعارهم هى الحديث عن المرأة ، والقبيلة ، والخيل ، والليل ، والإبل ، ووصف أدوات الحرب مثل : الدرع والترس ، والسهم ، والقوس ، ووصف الحيوانات والحمر الوحشية وذلك دليل على أن الشاعر الجاهلى وثيق الصلة ببيئته كما أومأنا إلى ذلك انفًا ، كما يدل على تأثره الشديد بها ، ومع ذلك فإننا نرى الصورة مختلفة فكل شاعر له خياله وتأملاته ، وبراعته فى التصوير ومن هنا تجىء المعانى متحدة لكن الصورة تختلف عن أختها .

سادس عشر : المحافظة على التقاليد الشعرية :

اشتهر الشعر الجاهلى بالمحافظة على التقاليد الشعرية حيث إنهم كانوا يبدأون قصائدهم بالغزل والبكاء على الأطلال والدمن البوالى ، وبخاصة فى القصائد الطوال الشهيرة بالمعلقات فكانت لها افتتاحية واستهلال خاص ، على الرغم من ذلك نرى الافتتاحيات متنوعة ، فكان الشاعر يفتتح طويلته بما يناسب حاله وما سيتحدث عنه .

سابع عشر : المادية والحسية :

إن الموضوعات التى عالجها الشعر الجاهلى كانت معالجة مادية بمعنى أن الحديث عنها كان من المناحى الحسية حتى ما كان منها معنويًا نجده قد أصبح محسًا مشاهدًا مرئيًا رأى العين ، فالفخر يدور الحديث فيه عن قوة السلاح وكثرة العدد ، وقتل الأعداء وأسرهم والغنايم والاستيلاء على الدور والمنازل ، وشرب الخمر ولعب الميسر وإتلاف